ابن ماجد
أسد البحر الهائج
للأستاذ قدرى حافظ طوقان

لا يظنن القارئ أننا نستطيع أن نوفى ابن ماجد حقه بمقالنا هذا، فذلك مالا ندعيه ومالا يمكن أن نقول به، ولا سيما أن ناحية الملاحة عند العرب لا تزال غامضة لم تمحط حقها من البحث والتنقيب عدا أنها لا تدخل فى دائرة اختصاصنا. وجل ما أقصده من هذه العجالة إعطاء فكرة عن ابن ماجد عسى أن يكون فى ذلك حفز الهمم للعناية بالمآثر الاسلامية والآثار العربية فى شتى النواحى، وعسى أن يكون فى ذلك إثارة العزائم للكشف عن آثار أحاطها اهمالنا بالغموض والابهام. إن حياة ابن ماجد حافلة بالأعمال، وقد تركت آثاراً جليلة، وهى صفحة لامعة فى التراث الاسلامى، يحق لنا أن نباهى أمم الأرض بها كما يباهى البرتغاليون بصفحة فاسكو دى غاما الذى طاف حول الأرض. وجدير بالمنقبين من أبناء هذه الأمة أن يخرجوها للنشء حتى تتبين فيه ما يحيى خصائصه الممتازة. نريد بل نطلب من أحد المتخصصين فى التاريخ الاسلامى أن يتخصص فى ناحية الملاحة عند العرب والمسلمين، وفى تاريخ إنشاء الأساطيل عندهم، ونريد منه أن يبحث ويدقق، حتى يخرج من ذلك بسفر جامع يكون جزءاً من الثقافة الحديثة يمكن للخاص والعام أن يستفيد منه، وإن فى تلك الاستفادة ما يخلق فى النفوس روح الاقدام وروح الاعتقاد بالقابلية والنبوغ، ولا يخفى ما فى هذا كله من قوى تدفع بالأمة الى المجد والسؤدد

كان العرب فى بدء فتوحهم يخافون البحر ويهابونه، وكيف لا يخافونه ويهابونه، وهم أهل صحراء منقطعون عنه لم يتعودوا رؤيته فكيف بركوبه . . . ولم يكن الخلفاء الراشدون يشجعون على ركوب البحار لخوفهم على أرواح المسلمين؛ وقد جاء أن الخليفة عمر بن الخطاب كان لا يشجع على ركوب البحر، وكثيراً ما عاقب الذين يخوضون عبابه، ويقال إنه عنف عرجفة بن هرثمة الأزدى لركوبه البحر حين غزوه عمان. وقد يكون السبب فى منع الخلفاء هو خوفهم على المسلمين لأنهم لم يكونوا أهل بحر ولم يتعودوا السير على أعواده. وبقى الأمر على هذه الحال إلى أن اتسعت الفتوح الاسلامية والعربية؛ وأصبح من العسير بل من المستحيل حماية بعض البلاد، ولا سيما وقد أصبح المسلمون مجاورين الرومان وقد رأوا أن الحاجة ماسة لحماية الشواطئ، ولقد اتخذوا فى إنشاء السفن مثال الرومان؛ ومن الغريب أنك تجدهم فى مدة وجيزة قد صارت لهم دراية وخبرة بالبحار وبركوبها، وقد طافوا أشهرها وقهروا محيطات العالم، واتصلوا بالبلاد البعيدة وعرفوا عنها الشىء الكثير، مهروا فى صناعة السفائن، وأنشأوا لذلك دوراً عظيمة، وصار لهم أيضاً فى مختلف الأنحاء أساطيل أصبحت عرائس البحار وزينة الشواطئ، متقنة الصنع كثيرة العدد تفننوا فى عملها، وأدخلوا تحسينات جمة على آلاتها، وضموا لها الخرائط والمصورات البحرية، كانوا على علم بالأوقات الملائمة لخوض البحار وعلى معرفة تامة بأوقات هبوب الرياح، اتخذوا المنائر فى المرافئ وفى المواضع الخطرة لهداية السفن، واستعملوا الابرة المغناطيسية لتعيين الجهات، ولقد وصل الأسطول الأندلسى فى عصر عبد الرحمن الناصر إلى مائتى مركب، وكذلك كان أسطول أفريقيا إذ وصلت أساطيل المسلمين فى دولة الموحدين من العظمة والفخامة مالم تصله فى أى عصر آخر، وبلغت المراكب فى أيام المعز لدين الله بمصر ستمائة قطعة. ولسنا الآن فى موقف نستطيع معه تعداد أمجاد العرب والمسلمين فى الملاحة، ولسنا أيضاً فى موقف نتمكن معه من سرد مواقع المسلمين البحرية وبراعتهم فى ذلك. فهذا كله لا يزال محاطاً بسحب الابهام، لم ينقض عنه بعد غبار الاهمال؛ ومما يؤلمنا أننا الى الآن لم نسمع عن جماعات علمية أو منقبين أقاموا أنفسهم لهذه البحوث وصرفوا أوقاتهم فى تهيئتها، وعلى كل حال يمكننا القول من مطالعة كتب التاريخ التى بين أيدينا أن العرب وصلوا فى الملاحة الى درجة لم يصلها غيرهم من قبلهم. إذ جعلتهم سلاطين البحار وغزاة المحيطات، وكان لذلك تأثير كبير على فتوحاتهم، فلقد تمكنوا بأساطيلهم من فتح سردينيا وصقلية وقبرص ومالطة وأقريطش، وكذلك فتحوا بها كثيراً من شواطئ البحر الأبيض المتوسط مما يلى أوروبا إلى بريطانيا فى الشمال. وقد بقى العرب أسياد العالم فى البحار إلى أن قامت عليهم قيامة الغرب بحروبه الصليبية،

وإلى أن قامت عليهم أيضاً المغول والتتار ، وهبت عليهم عواصف الفتن والقلاقل من كل جانب ، فضعف شأنهم وأضاعوا عزهم ومجدهم ، واستولت عليهم غفلة طويلة وجمود مروع كاد يذهب بالكيان والخصائص التي يمتاز بها العرب على غيرهم ، وكاد يستحيل كل هذا الى موت أكيد . . .

قلنا إن الأمة العربية وصلت الى درجة فى البحرية لم يصلها غيرها من الأمم التى سبقتهم ، أخضعوا البحار لأساطيلهم ، ولم يهابوا مدها وجزرها ، وساحوا بسفنهم المحيطين الهنـــدى والهادى ، وأصبح لهم دراية وخبرة فى الملاحة ، وان أمة كان هذا شأنها ، وكانت هذه درجتها لمن الطبيعى أن يظهر فيها من مهر فى الملاحة وبرع فى البحرية واطلع على أسرارهما ووقف على دقائقهما ، ومن الطبيعى أيضاً أن يظهر فيها من ألّف المؤلفات العديدة ، ووضع الكتب الكثيرة فى علم البحار ، ولاعجب إذن إذا كانت هذه المؤلفات وتلك الكتب منهلاً نهل منه كثير من ملاحى الغرب ، ولاعجب إذن إذا استعانوا بها فى تسيير سفائنهم ورسم الخرائط والمصورات البحرية ، وفى معرفة المواقع والمرافىء والخلجان . ومن هؤلاء الذين نبغوا فى الملاحة ووقفوا على دخائلها وعرفوا أسرارها ابن ماجد الذى ظهر فى القرن التاسع للهجرة ؛ وهو شهاب الدين أحمد بن ماجد بن محمد بن معلق السعدى بن أبى الركائب النجدى ، كان يلقب نفسه بشاعر القبلتين ، وقد حج الى الحرمين الشريفين ويُعرف بسليل الأسود ، وكان أبوه ومن قبله جده من الذين اشتهروا فى الملاحة ، حتى أن جده كتب رسالة فى الملاحة فى البحر الأحمر خدمة للسفن التى تقل الحجاج ، ولقد زاد والد ابن ماجد على هذه الرســـالة نتيجة اختباراته الشخصية[1] . من هنا يظهر أن ابن ماجد منحدر من عائلة اشتهرت بالشئون البحرية والاعتناء بالملاحة ، فلا غرابة إذا نبغ هو فى ذلك ، ولا عجب أيضاً إذا فاق أجداده فى هذا كله . وقد اعترف بعض المنصفين من علماء الأفرنج بفضل العرب (وخصوصاً ابن ماجد) على الملاحة البرتغالية فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر للميلاد . وقد قال الأستاذ فرّان الفرنسى إن الفضل فى تفوق الملاحة البرتغاليـــة يعود الى العرب[2]

(١) مجلة المجمع العلمى العربى ج ١ ص ٢٨٤
(٢) » » » » » » » ٢٨٢

والأستاذ فران هذا هو الذى ترجم كثيراً من مؤلفات ابن ماجد وقد علق عليها ، وقد صـــدرها بعنوان « مؤلفات ابن ماجد الملقب بأســد البحر الهائج ربان فاسكو دى غاما الذى طاف حول الأرض . » وثبت لبعض علماء أوربا أن فاسكو دى غاما استعان بابن ماجد فى تسيير أسطوله حول الأرض من مالندى على ساحل أفريقيا الشرقية الى قاليقوت فى الهنـــد . ووضع ابن ماجد مؤلفات عديدة ورسائل كثيرة فى علم البحار وكيفية تسيير السفن ، هى من الأهمية العلمية والتاريخية بمكان عظيم . ومن مؤلفاته القيمة المعروفة كتاب اقتناه المجمع العلمى العربى بدمشق وهو موجود الآن فى دار الكتب العربية الظاهرية . واسم هذا الكتاب « كتاب الفوائد فى معرفة علم البحر والقواعد » ، وقد كتب عنه المرحوم العلامة الشيخ سعيد الكرمى فى الجزء الثانى من المجلد الأول من مجلة المجمع مقالاً جاء فيه : « والكتاب عبارة عن مائتى صفحة كل صفحة ٢٣ سطراً يتضمن معرفة طريق سير السفن فى البحر بمعرفة منازل القمر ومهب الرياح ومعرفة القبلة . . . » ونجد فى هذا الكتاب كيفية الاستدلال بمنازل القمر والبروج على البلاد التى يقصدها المسافر ، ويتبين منه أيضاً أن المؤلف اتخـــذ بنات نعش وسهيلا والناقة والحمارين والعيوق والعقرب والنسر الواقع والأكليل والسماكين والنير

أصدرت لجنة ترجمة دائرة المعارف الاسلامية
القصة الرائعة
أديب
لمؤلفها زعيم الأدب العربى الدكتور
طه حسين
شيء جديد فى الأدب العربى
تطلب من
مكتبة النهضة المصرية
لأصحابها : حسن محمد وأخوته
شارع المدابغ رقم ١٥ تليفون ٥١٣٩٤
ثمن النسخة ١٠ قروش صاغ

من جملة الأدلة التي تساعد المسافرين في الأسفار ، وقال إنه علم ذلك بالاختبار ، واعترف بأن ثلاثة من مشاهير الربابين سبقوه الى ذلك ، وأن الفرق بينه وبينهم « أن ما ذكره هو مصحح مجرب ، وما ذكره أولئك ليس على التجريب منه شيء . . . . » ويوجد أيضاً في هـــذا الكتاب عرض بعض الثغور على الأقيانوس الهندي والبحر الصيني وشكل البرور ومراسي ساحل الهند الغربيـة والجزر العشر الكبرى المشهورة ، وفيه وصف تفصيلي للبحر الأحمر بما فيه مراسيه وأعماقه وصخوره الظاهرة والخفية ، وفيه أيضاً بعض أسعار تتعلق بالملاحة والبحار ، ويتبين من قراءة بعضها أنه كان معجباً بنفسه وبما استنبطه في علم الملاحة إذ قال :

يفوتك غفلة نظمي ونثري ... وترعم أن ليلك ذو نهـــار
فوا لحرمين لم تظفر بمـــلم ... يسرك في البحار وفي البراري
إذا ما الراميات رمتك فاعلق ... بتصنيفي وحكمي في المجاري

ويجد القارىء في هذا الكتاب بعض أشعار تعلي من شأن العلم وتحببه للناس ويقول ناظمها إن طالبه والساعي اليه يزداد رفعة ، وإن الذي لا يسعى اليه ولا يهمه منه شيء يورثه الله الذل والهوان . . .

العلم لايعرف مقـــداره ... إلا ذوو الاحسان عند الكمال
من ناله منهم ترقى به ... ما بين أعيان الملا واستطال
ومن تراخى عنـه هوناً به ... أحوجـه الله لذل السؤال
فذاك بين العلى أخرس ... أقعده الجهل بصف النعـال

ولابن ماجد رسائل عديدة أكثرها منظوم رجزاً كرسالة (حاوية الاختصار في علم البحار) ففيها بحث عن العلامات التي يجب على الربابين معرفتها استدلالاً على قرب البر وعن منازل القمر ومهاب الرياح وعن السنة الهجرية والرومية والقبطية والفارسية وعن طريق السفن على ساحل العربية والحجاز وسيام وشبه جزيرة ملقا وأطراف بلاد الزنوج وعلى سواحل الهند الغربية ، وسواحل القرومندل والناط والبنغال وسيام حتى جزيرة بليطون وجاوه والصين وفرموزه ، وعن سير السفن على سواحل جزر جاوه وسومطرة والغال ومدغشكر واليمن والحبش والصومال وجنوبي العربية والمقران ، وعن المسافات بين الثغور العربيـة والثغور الهندية ، وعن عرض الثغور على البحر الهندي[1] . وله أيضاً رسالة (المعربة) وفيها بحث عن الخليج البربري ، ورسالة تبحث في معرفة القبلة في جميع الأقطار يقول في أولها : « لما رأيت الناس يميلون عن معرفة القبلة وليس لهم أصل علم يعرفونها به خصوصاً في المدن اللواتي بقرب البحر وجزره التي يمر بها المسافر ، نظمت هـذه الأرجوزة وأقمتها بأوضح الأدلة وأسهلها بأربعة وجوه : الوجه الأول بطول مكة المشرفة وعرضها وطول البلد الذي فيـه الانسان وعرضه ، الوجه الثاني على الجدي ، الوجه الثالث على بيت الابرة ، الوجه الرابع جهات الكعبة الأربع . . . . » وله أيضاً أرجوزة بر العرب في خليج فارس ، وأرجوزة السير في البحر على بنات نعش ، وقصيدة تبحث في علم المجهولات في البحر والنجوم والبروج وأسمائها وأقطابها ، وأرجوزة في بيان بر الهند وبر العرب ؛ وله أيضاً قصائد أخرى بعضها يبحث في معرفة الجهات من الشعرى والنسرى ومن سهيل والسماكين ، وله أراجيز غير التي مر ذكرها تتضمن ذكر المراسي على ساحل الهندي الغربية ، وعلى ساحل العربية ، وتبحث في فائدة بعض النجوم الشمالية في سير السفن ، ويذكر فيها أيضاً بعض الكواكب المفيدة للملاحة ، ومنها ما يبحث في الطرق البحرية من جدة إلى جنوبي بلاد العرب فبعض بلدان وسواحل أخرى ، ومنها ما يبحث عن الصخور البحرية والأعماق وعلامات البر وعن الحيوانات التي تعيش في الماء كالضفادع والأسماك والحيتان ، وعن علم الفلك والملاحة . . . . الخ

هـذه بعض مؤلفات ورسائل ابن ماجد أتينا على ذكرها ليتبين للقارىء الكريم أنه وُجد في الأمة العربية من برع في الملاحة ومهر في تسيير السفن ومن ألّف في ذلك المؤلفات القيمة والرسائل الطريفة . ومن الغريب أن يجد المرء في هذه المؤلفات وتلك الرسائل ابتكارات ونظريات في علم البحار ما كانت لتخطر على بال المتقدمين ، وقد يعجب البعض إذا قيل له إن أكثر هذه المؤلفات ضاع وراح ضحية الاهمال وعدم الاعتناء وأن الموجود منها (وهو القليل) الذي عثر عليه بعض المنقبين والباحثين من الفرنجة بقي سنين عديدة المرجع الوحيد الذي يرجع اليه الملاحون في

(١) مجلة المجمع العلمي العربي ج ١ ص ٢٨٢

أوروبا . ولقد بقيت القواعد التي وضعها ابن ماجد من القرن الخامس عشر للميلاد إلى منتصف القرن التاسع عشر منهلاً عاماً للاحي الشرق والغرب . وذكر برتن الانكليزي أن بحارة عدن في سنة ١٨٥٤ كانوا قبل السفر يتلون الفاتحة إكراماً لابن ماجد مخترع الابرة المغناطيسية . ومما لا ريب فيه أن نسبة اختراع بيت الابرة إلى ابن ماجد خطأ وليس فيه شيء من الصحة ، فقد ثبت لدى العلماء والباحثين أن استعمال الابرة كان معروفاً في أواخر القرن التاسع للهجرة أو الخامس عشر للميلاد ، فالقول بأنه هو مخترع الابرة غلط ، وقد تكون النسبة آتية من مهارته في تسيير السفن وبراعته في فن الملاحة ووقوفه على أصول الابرة وكيفية استعمالها وفهمه المبادئ المنطوى عليها عملها وتأليفه الرسائل فيها

ولقد ظهر في الأمة العربية كثيرون أمثال ابن ماجد من الذين أتقنوا الملاحة وتسيير السفن وعرفوا عنها شيئاً كثيراً ، وظهر فيها أيضاً من ألّف في ذلك التآليف القيمة التي بقيت قروناً عديدة منبعاً يستقي منه الأوروبيون ، وقد عرفوا كيف يستفيدون منها ويستغلون محتوياتها لما يعود عليهم بالتقدم والرقي ، ولو جئنا نعددهم ونذكر خصائص كل منهم لطال بنا المطال ، ولخرجنا عن موضوع هذا المقال ، ولكنا نكتفي بسرد بعض الربانيين والملاحين الذين قطعوا أشواطاً بعيدة في علوم البحار وفي وضع الكتب الممتعة عن ذلك . من هؤلاء محمد بن شاذان وسهيل بن أبان وليث بن كهلان وسليمان المهري وعبد العزيز بن أحمد المغربي وموسى القندراني وميمون بن خليل وغيرهم . . .

. . . . . هذه ترجمة موجزة لملاح عربي مهر في الملاحة ونبغ في التأليف وترك آثاراً جليلة كانت خير معين للذين أتوا بعده من ربان الشرق والغرب ، إذ كانت لهم حلولاً لالغاز علم البحار ومفتاحاً للاطلاع على أسراره والوقوف على دقائقه . ولا ندعي أننا في هذا المقال قلنا بشيء من الواجب نحو ابن ماجد فقد قام بواجبه غيرنا من الفرنجة وقد عرفوا قدره أكثر منا ولم نكن نحن في هذا المقال إلا عالة على بحوثهم ونتاج قرائحهم ، وجل قصدنا من هذه الترجمة أن تثير في بعض الذين يعنون بالتاريخ الاسلامي اهتماماً يجعلهم يوجهون بعض عنايتهم لناحية الملاحة عند العرب لينفضوا عنها غبار الاهمال ويظهروها على حقيقتها واضحة جلية لا تشوبها غموض ، إذ الوقوف على هذه النواحي والتعرف على مآثر السلف في العلوم والآداب والفنون والاطلاع على سير رجالهم وما أدوه من جليل الخدمات للحضارة يخلق في النشء العربي روح الاقتداء بهم وروح اقتفاء آثارهم ، وما يذكي فيهم حفائظهم ويثير فيهم الشهامة وحب ركوب المخاطر ، وإن في هذا كله ما يخلق أيضاً روح الاقدام وروح المغامرة ، وهذا هو الذي يوصلهم إلى ما يصبون اليه من عز لأمتهم ورفعة لقوميتهم وإعلاء لشأن حضارتهم

نابلس قدري حافظ طوقان

بقلم المجاهد الاسلامي الكبير

الأمير شكيب أرسلان

تاريخ غزوات العرب

في فرنسا وسويسرا وايطاليا وجزائر البحر المتوسط

جامع لما غفل عنه المؤرخون من أهم فتوحات العرب وأعظمها

حاضر العالم الإسلامي

تأليف استودرد الأمريكي ترجمه الأستاذ عجاج نويهض

علق عليه الامير شكيب بتاليفه الثمينة وأعانه اضافية فاصبح حجمه ٤ أجزاء في ١٦٠٠ صفحة جامع لخلاصة تاريخ الامم الاسلامية والشرقية

محاسن المساعي

في مناقب الامام أبي عمرو الأوزاعي

أحد الأئمة المجتهدين ولا يتأخر مكانه عن الأئمة الاربعة

أشهر القصص

الجزء الأول يشمل مختصر سير الأنبياء عليهم الصلاة والسلام المذكورين في القرآن الكريم

الجزء الثاني يشمل مختصر سير أولي العزم من الرسل وهم : نوح - ابراهيم - موسى - عيسى - محمد - صلى الله عليهم وسلم

الجزء الثالث يشمل مختصر سير الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم

الجزء الرابع يشمل مختصر سير تقي الدين وبعض الصالحين

الجزء الخامس يشمل مختصر سير أمهات المؤمنين ، وبعض الشهيرات من النساء

تطلب هذه الكتب ومخلافها من مكتبة

عيسى البابي الحلبي وشركاه بمصر

صندوق بريد الغورية ٢٦ مصر

بجوار سيدنا الحسين ، تليفون ٥٠٨٥٦